طبيعة الحوار في المشهد القصصي في القرآن الكريم "دراسة تحليلية"

ثاني أبوبكر عبد الله

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة ولاية بوتثي غطو، ولاية بوتثي، نيجيريا.

aburukaiyah03@gmail.com

07012525298 - 08034590708

الملخص:

التوجه إلى القصص القرآني بوصفه موردًا نستقي منه أسس فن القصة لا يعني أن نتعامل مع القرآن على أنه كتاب قصص وتسلية، أو أن ننسى أن معجزة القرآن أساسًا معجزة بيانية، ولهذا لا ينبغي أن ننكر أن من مقاصد القرآن الكريم الإتيان بفنون وألوان من فن القصة، بل المنتظر أن يكون ما يأتي به منها ليس كمثله شيء، ولا يطاوله فنّ. ومن صدق التوجه، بل من أهمّ أهداف هذه الدراسة أن ينبه الباحث إلى أمر في غاية الأهمية وهو: أن القيمة الدينية مقدمة دائماً على القيمة الفنية، في دراسة القصة القرآنية، بل السعي إلى إثبات تسخير الفن لخدمة الدين والعقيدة في قصص القرآن أساس قوي من أساسيات هذه الدراسة. ويشتمل المقال على ذكر بعض المحاورات منها: المحاورة بين رب العزة سبحانه وتعالى والملائكة في خلق آدم عليه السلام، والمحاورة بين رب العزة سبحانه وتعالى وإبليس عليه اللعنة، وقصة ابني آدم

عليه السلام، وما استوحاه توفيق الحكيم من قصة نبيّ الله سليمان عليه السلام، وقد استخدم الباحث المنهج الاستقرائي والتحليلي.

مقدمة

لم يحظ كتاب من الكتب المقدسة أو غير المقدسة بمثل ما حظي به القرآن الكريم من دراسات، حيث نال عناية طوائف عديدة من العلماء منذ نزوله حتى اليوم، وسيبقى محل عناية الدارسين واهتمامهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن القرآن الكريم كتاب دين وتشريع في المقام الأول، وقيمه الدينية والتشريعية هي المقدّمة على كل ما عداها، ولكن ينبغي أن يذكر أن النظرة إلى القرآن الكريم قد اشعت – في العصر الحديث – فصارت تشمل القيم التاريخية والعلمية والأدبية، بالإضافة إلى القيم الأساسية، أي القيم الدينية والتشريعية، ومن هنا رأينا كثيراً من الدارسين يربطون بين القرآن الكريم والعلوم الطبيعية، بل إن بعض المفسرين يركّزون في تفسيرهم على الناحية العلمية وحدها، كما يربط بعض الدارسين – أيضاً – بين القرآن الكريم والدراسات الأدبية الفنّية، فكلمتا "العلم" و"الفن" أصبحتا مستعملتين في الدراسات الخاصة بالقرآن الكريم.

ومن المعروف أن القصة الفنية تعتمد على الحوار والسرد في بنائها، والمحاورات القصصية أمر لا غنى عنه وبخاصة في الرواية، لأن طولها يستدعي – بل يوجب– تنوع أسلوبها بين الوصف السردي والحوار. والمحاورة في المسرحية هي الركيزة الأساسية التي تقوم عليها، بل هي الركيزة الأسلوبية الوحيدة، إذا استثنينا بعض الأوصاف التي يكتبها مؤلف المسرحية ممثلة، وهو ما يعرف

بالتوجيهات المسرحية. والمقصود بطبيعة الحوار هو بيان سماته الفنّية، ومنها مناسبته للشّخصية وللموق القصصي، ومنها بيان دوره في تطوير الأحداث وتصعيدها، ومنها بيان قدرته على تقديم الشّخصية وتصويرها تصويراً صحيحاً.

الحوار لغة:

ساق ابن منظور لهذه الكلمة في "لسان العرب" تحت مادة "ح و ر"معاني كثيرة ، ومن ذلك أنه ذكر بأن الحوار: "الرجوع إلى الشّيء، حار إلى الشّيء وعنه حورا ومحاورة وحُؤُورا رجع عنه وإليه...والمحاورة: المكان الذي يحور أو يحاور فيه... وكلّمتُه فما رجع إلي حَوارا وحِوارا ومحاورةً... والمحاورة: المجاوبة... والتحاور: التجاوب... واستحاره أي استنطقه... واستحار الدار: استنطقها".[1]

والسرد في اللغة: تقدُمَةُ الشّيء إلى شيء تأتي به متَّسقا بعضُه في إثر بعضٍ متتابعا. وسَرَدَ الحديث ونحوَه يسردُه سَردًا إذا تابعه. وفلانٌ يسرُدُ الحديث سردًا، إذا كان جيّد السِّياق له. وفي صفة كلامه صلى الله عليه وسلم، لم يكن يسردُ الحديث سردًا، أي يتابعُه ويستعجل فيه.[2]

الحوار في الاصطلاح

يعرف حبور الحوار بأنه: "حديث يجري بين شخصين أو أكثر في العمل القصصي، أو بين ممثّلَيْن أو أكثر على المسرح".[3] بهذا التعريف الذي خصّ الحوار بالقصّة والمسرح يجد الباحث انحسار المفهوم في جانبي القصّة والمسرح، كما أنه يؤكد على ارتباطه الوثيق بالشّخصية المنتجة للحوار. في حين نرى صاحب "المعجم الأدبي" يعرّف الحوار بأنه "حديث يدور بين اثنين على الأقل،

ويتناول شتّى الموضوعات، أو هو كلام يقع بين الأديب ونفسه أو من ينزل مقام نفسه كربّة الشّعر أو خيال الحبيبة مثلًا".[4]

المحاورات القصصية

أما الحوار في القصة فقد عرّفه أحد الباحثين العرب بأنه: " الأداة القصصية المتمثّلة في نقل الأقوال أو حكايتها"،[5] وهذه الأداة قد تكون متأرجحة بين الواقع والخيال في نقل الأقوال أو حكايتها هذا من جهة، ومن جهة أخرى تكون أداة ثانوية، ليس كما كان الأمر في المسرحي؛ لأن الحوار المسرحي يكتسب حيوية بالأداء االتمثيلي لترابط أجزائه بعضها مع بعض. أما الحوار القصصي فيستعصي على أن يؤدّي الحوار المسرحي؛ لأنه وثيق الصلة بالسرد القصصي والوصف والتحليل.[6]

المحاورات القصصية في القرآن الكريم

والمحاورات القصصية في القرآن الكريم لها شأن عجيب: "من حيث قدرتها على بيان مدى المقاومة بين أطراف الحوار، تلك المقاومة التي لا بدّ من توافرها لكي ينشأ الموقف الذي يجسم صراعاً بين قوى مريدة، وأخرى مانعة قاهرة، والمغالبة بين هذه القوى هي التي تؤدي إلى تصعيد الحدث إلى ذروة تنتهي بتغلب إحدى القوتين على الأخرى... وعلى قدر قوة الصراع بين أطراف القصة تكون المقاومة في المحاورة".[7]

المحاورة بين رب العزة سبحانه وتعالى والملائكة في خلق آدم عليه السلام

ولكي تتضح هذه القاعدة التي تحكم بناء المحاورات في القصص القرآني يقف الباحث مع بعض المحاورات ليبين صدق ما يذهب إليه. أولها بين رب العزة سبحانه وتعالى والملائكة في خلق آدم، قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي

جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)" سورة البقرة: 30–33.

ليس في هذه المحاورة صراع أو مقاومة بين طرفيها، ولكن غاية ما يقال عنها: إنها نوع من المراجعة من الملائكة لرب العزة سبحانه وتعالى؛ لأن الملائكة هم الموصوفون بقوله سبحانه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" (سورة التحريم: 6). فهم لا يملكون القدرة الحافزة على المقاومة والصراع، وإنما دفعهم إلى هذه المراجعة ما سبق إلى علمهم بأن ذرية هذا المخلوق الجديد سيكون منهم إفساد في الأرض وسفك للدماء، وعلمهم بصفة هذه يدعو إلى الاعتقاد بأن ثمة حذفا في هذه المحاورة، وقد وقع هذا الحذف في الجزئية المتصلة بالطريقة التي علمت منها الملائكة بصفة ذرية آدم[8] لذا بادروا بقولهم: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ ...) (30) وعجبهم منصب على أن الله سبحانه وتعالى يستخلف من هذه صفته مكان من يطيعه ولا يعصيه وهم الملائكة.[9]

إن طبيعة المحاورة هنا تعتمد أساساً على اختلاف طرفي الحوار، الخالق سبحانه وتعالى، وهو صاحب المشيئة المطلقة، والمخلوقون الذين لا يعصون لله

أمراً، ولذا جاءت المحاورة على هذه الصفة إذ لم يتعدّ الطرف المقهور – وهم الملائكة – طور المراجعة إلى ما هو أشدّ منها، من مقاومة أو صراع، ولم يلبث هذا الطرف المقهور أن أعلن الاستسلام والخضوع حين بدت لهم مشيئة الله في خلق آدم وتفضيله على غيره من المخلوقات فقالوا: "سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا..."(32)

وفي هذا القول من الملائكة تأكيد لشخصيتهم وصفتهم الملتزمة لطاعة الله دائما، ومراجعتهم للخالق سبحانه لا تعني بحال خروجهم عن الطاعة، بل تؤكدها، إذ سرعان ما ردّوا الأمر برمّته إلى علم الله فور ظهور الدليل أمامهم على أفضلية هذا المخلوق الجديد.

ومن اللطائف في بناء هذه المحاورة، أن القارئ قد ينظر في قوله تعالى: "إِنِّي جَاعِلٌ". فلا يدري أهذا الجعل قد كان فعلاً وقت بداية المحاورة أم سيكون فيما بعد؟ ثمّ يقرأ قوله تعالى: "وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" فيفاجئ بخطاب الله آدم عليه السلام وهو كان فعلاً، وأن آدم أصبح خلقاً مستوياً مؤهّلاً للخطاب، مؤهّلاً –أيضاً– لتلقي العلم، وفي هذا إيذان وإرهاص بقرب انتهاء المحاورة؛لأن الحدث الذي هو موضوع المراجعة قد تمّ فعلاً، ولذا لم يكن من الملائكة مراجعة بعد ذلك، بل كان منهم الخضوع والإذعان لمشيئة الله سبحانه.

المحاورة بين ربّ العزّة سبحانه وإبليس

ثانيهما: بين ربّ العزّة سبحانه وإبليس، قال الله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا

فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)" (سورة الأعراف: 11– 18).

إن شخصية "إبليس" مصورة في هذه المحاورة أوضح ما يكون التصوير، وهو هنا ذو وجهين مختلفين أشدّ الاختلاف؛ وجه ينبئ بالذلّة والصغار، ووجه يوحي بالتمرّد والكبر والخروج على طاعة الله، وقد أوضحت المحاورة هذين الوجهين من دون أدنى تدخّل من السرد الوصفي.

أما الوجه الأول فيبدو في:

1– وقوفه أمام ربه صاغراً حين سأله عن سبب امتناعه من السجود.

2– في صدور الأمر الإلهي بالهبوط، والأمر بالخروج وتوعده بالصغار.

3– في وقوفه مستعطفاً سائلاً ربه النظرة.

4– في تكرار الأمر بالخروج مذءوماً مدحوراً.

وأما الوجه الثاني فيبدو شاخصاً أمامنا من خلال:

1– إبائه وامتناعه عن السجود لآدم، وعصيانه أمر ربه.

2– ادّعائه أنه خير من آدم لأنه خلق من نار، وآدم خلق من طين.

3– إجابة الله سبحانه له الانتظار.

4– في مبالغته في توعد بني آدم، والانتقام منهم، إذا يعد ألّا يدع ثغرة إلا ويأتيهم منها.

خيريته على آدم ويقدّم الدليل على هذه الخيرية، وهو اختلاف مادتي الخلق؛ النار والطين، إذ هو يعود فيستعطف ربه سائلاً إياه أن ينتظره إلى يوم البعث، فلمّا أجيب إلى طلبه، دون تحديد الموعد الذي طلبه، عاد إلى تمرّده،، ولكنّه لا ينسى قدرة ربّه فيقسم بها ليسلكن كل سبيل إلى إغواء ذرّية آدم، ولا ينسى قدرة ربّه أيضاً فيعلن أنه إذا استطاع أن يغوي الكثرة الكاثرة من هذه الذرّية ويصدّهم عن ذكر الله، فإن بعضهم لن يستجيب لغوايته، ولذا قال: "وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ..." (17) لأن الأمر مردود إلى الله سبحانه وتعالى، ولذا صرح في آية أخرى: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83)" (سورة ص: 82–83).

إن إبليس خلق من خلق الله، ولو شاء الله سبحانه أن يقسره على الإيمان والسجود لآدم لقسره، أو لهداه إلى السجود كما هدى الملائكة، ولكن الله سبحانه أعطاه حرية الاختيار، وصان له هذه الحرية، ومن هنا يبدو الفرق بين هذه المحاورة والمحاورة السابقة بين رب العزة والملائكة بشأن خلق آدم، فالمحاورة السابقة لم يكن فيها تجاذب لأطراف الحوار، لأن الملائكة سرعان ما أذعنوا لمشيئة الله سبحانه، ولكن إبليس – وقد أعطي قدراً كبيراً من الحريّة – راح يلج باب الحوار، في ما يشبه الجدل أحياناً: "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)" وما يشبه التحدّي لذرّية بني آدم أحيانا أخرى: "قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ... وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(17)" إلخ

ويلاحظ أن إبليس كان كثير الكلام بعد إجابة الله سبحانه طلبه في الانتظار، أما قبل ذلك فكان كلامه قليلاً إلى حدّ ما، وإن كان لا يخلو من جرأة

ظاهرة؛ وذلك لأن إجابة طلبه زادته جرأة، ولعلّ ذلك سبب التفضيل الظاهر في قوله: "لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ... وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17)".

إن النقاد يؤكدون أن الحوار يجب أن يكون مناسباً للشّخصية وللموق القصصي، وها هو ذا القرآن الكريم يضع هذه القاعدة القصصية قبل أن يعرف النقاد حرفية الفنّ القصصي، وقبل أن يهتدوا إلى معايير جودة المحاورات بزمن طويل.

دور الحوار القرآن في تطوير الأحداث وتصعيدها

أمّا السمة الثانية، وهي دور الحوار القرآني في تطوير الأحداث وتصعيدها، فتتّضح من خلال هذه القصّة:

قال الله تعالى عن ابني آدم: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)" (سورة المائدة: 27–31).

ولننظر في البناء اللغوي المحكم – بل المعجز – لهذه القصة، لنرى كيف أن الأسلوب القرآني ضرب صفحاً عن كثير من الأمور التي لا تعلق لنا بها ولا

غرض يعود علينا من ذكرها، فمن هما ابنا آدم هذان؟، وما السبب الذي دفعهما إلى أن يقربا قرباناً؟ هذه الأمور لا مكان لها في القصة القرآنية؛ لأنها لا تفيد شيئًا سوى إشباع الفضول البشري، والفضول البشري لا وزن له في منهج القصة القرآنية، وإنما مكانه في القصص البشري الفنّي!!!.

كل ما ذكرته القصة أنهما أخوان قربا قرباناً فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر، وبهذا صار القارئ في قلب الأحداث قبل أن تكتمل الآية الأولى من القصّة!! وأعجب من هذا أنه يسير إلى ذروتها الدامية بعد أول جملة حوار ينطقهما الأخ الذي لم يتقبّل منه، "قال لأقتلنّك" والملحوظ "أنها الكلمة الوحيدة التي نطق بها هذا الأخ، ولكنّه قالها في إصرار عنيد، وتوكيد جازم، وكأنه يريد أن يسدّ أمام نفسه كل سبل العودة إلى المسالمة والموادعة التي يقتضيها واجب الأخوة، ورابطة الدمّ بين الأخوين!!.

وهذه الكلمة الوحيدة "تصور نفس هذا الأخ وما يعتمل فيها من اندفاع نحو الشّر، وإصرار عليه، واشتهاء له، وتجاوب معه، وهي تصوير – أيضًا– اختلاط الشّر بهذا الإنسان وامتزاجه به، ثمّ هذا إغراءالذي يقوده إليه، وكأنه يشرف به على خير يجتنيه أو نعيم يعيش فيه 10"، وعلى عادة الأسلوب القرآني في ضبط الحركات النفسية تقول القصة عن هذا الأخ الظالم: "فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ..."(30) حتى نفهم "أنه ليس ثمة قوى خارجية أثرت فيه حتى يقرر قتل أخيه كالشّيطان مثلاً، وإما الأمر أولاً وأخيراً شرّ ذاتي محض، وحقد دفين في نفسه، كما تدل هذه الكلمة على أن في نفس هذا الأخ صراعاً مقسياً داخلياً، وإلاٍ ما كان في حاجة إلى عملية التطويع هذه".[11]

إن عنصر الشرّ هنا كان كلامه قليلا وفعله مؤثراً غاية التأثير، وإذا كانت هذه الكلمة: " لأقتلنّك" تمثّل إرادة الإنسان الباغي الظالم؛ فإن الكلام الكثير الذي جاء على لسان عنصر الخير، يمثل إرادة الإنسان الوادع المسالم، فهنا إرادتان متقابلتان، إحداهما مصرّة على القتل، والثانية مصرة على ألا تدفع القتل عن نفسها، ويعلن صاحبها حيثيات حكمة بقوله: "...إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ".(28)

وانتصار إرادة الظلم بقتل الأخ أخاه، إيذاناً بنهاية الأحداث؛ ولكنها ليست إيذاناً بنهاية القصّة، فما زال في القصة ومضة تضيء جانباً من جوانب النفس الإنسانية، تلك الومضة هي: قول القاتل بعد أن رأى الغراب يبحث في الأرض: "يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ"(31) ولأن القرآن هو الصدق المطلق، كان من المستحسن أن يرينا تلك الومضة اللامعة في نفس هذا الأخ، فإن كل إنسان يرتكب جرمًا أو معصيةً لا بدّ له أن يعود إلى نفسه، وأن يتوب إلى رشده فيندم على ما فعل من جرم وما ارتكب من معصية، تلك هي طبيعة الإنسان العاقل السوي، الذي قد تغلبه نفسه أو يغلبه شيطانه، وهكذا كان ابن آدم.

ويلاحظ أن الحوار هنا "قد خلا من تدخل عناصر غيبية غير بشرية سواء الخالق سبحانه وتعالى أو الملائكة أو الجن أو الشّيطان، ولعل ذلك مقصود من القصة للتأكيد على استقلال الإنسان، ومسئوليته عن اختياره فيما استخلف فيه، ويمكن أن يعد الغراب بديلاً عن هذه العناصر ليشدّ الإنسان إلى الأرض التي خلق من ترابها وقد فعل".[12]

ومن الواضح في المحاورات السابقة أنه على قدر قوّة الصراع بين أطراف القصة تكون المقاومة في الحوار، وتؤكد ذلك أمران:

أولهما: أن هناك محاورات قرآنية – وإن تكن غير قصصية – تنعدم فيها المقاومة تماماً، لأن المحاورة بين قوى متكافئة، ولذا لا تلبث القضية أن تحسم بطريقة الإقرار والتسليم، وفيها نجد الحوار قصيراً جدّا وحاسماً 13، كقوله تعالى: "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ". (سورة الفصلت: 11).

ثانيهما: أن هناك محاورات قرآنية تشتدّ فيها المقاومة وتعنف عنفا ظاهراً، لأن الصراع فيها بين قوى متكافئة من حيث القوة ولا نعني بالقوة القوة المادية فقط، ولكن القوة المعنوية لها حسابها في ميزان التحاور بين أطراف القصة، وربما كانت مقدّمة على القوة المادية في حسم نتيجة المحاورة لصالح أحد طرفيها.

ومثل هذه المحاورات العنيفة نجدها تطول وتمتد حتى إن بعضها يشغل مساحة كبيرة من كتاب الله عزّ وجلّ ومن أوضح ما يمثّل هذا النوع من المحاورات، محاورات "موسى" عليه السلام مع "فرعون" في غير سورة من سور القرآن الكريم، ومحاورات "فرعون" مع الرجل المؤمن من آله، ومحاورات "إبراهيم"عليه السلام مع أبيه وقومه.

وإذا بحثنا عن هاتين السمتين في القصص الفنّي، ومدى توفرهما، وجدنا أن كتّاب القصص في الأدب العربي ما زالوا في حاجة ماسة إلى مضاعفة الجهود وإلى مزيد من المران والدربة، والدراسة للنماذج الرفيعة من الأدب لكي يصلوا إلى مستوى أعلى في بناء المحاورات القصصية، ولعلهم يصلون إلى المستوى النضج الفنّي إذا تتلمذوا لقصص القرآن الكريم، صحيح أن من كتّاب القصص

في الأدب العربي من يجيد بناء المحاورات –كما سنرى – ولكن هؤلاء أيضًا لا تخلو محاوراتهم من هنات وسقطات تقلل كثيرا من جمال قصصهم ومسرحياتهم، وذلك شأن كل عمل بشري.

ولنقف الآن مع بعض الأمثلة من قصص كتّاب العرب لنرى طبيعة المحاورة من حيث ارتباط الصراع فيها بقوّة أطرافها، ومدى المقاومة بين أطراف الصراع، ولنرى – أيضًا – إلى أي حدّ نجحت المحاورة في تقديم الحدث.

القصص القرآني مصدر إلهام لبعض كتاب القصة المعاصرين

كان القصص القرآني مصدر إلهام لبعض كتاب القصة المعاصرين يستمدون منه موضوعات قصصهم ومسرحياتهم وكان منهم من يحافظ على الخيوط الأساسية للقصة القرآنية التي استوحاها، فلا يخرج عن إطارها، وكان منهم من يقدم دواعي الفن القصصي أو المسرحي على قداسة الموضوع القرآني، فيبيح لنفسه أن يغير ويبدل في جوهر الصة أحيانا بما يخرجها عن إطارها الذي رسمه القرآن الكريم، إما استجاب لدواعي الفنّ، وإما إشباعا للفضول البشري الذي يحسن بالجوع إلى معرفة ما عمد الأسلوب القرآني إلى الاستغناء عنه في كثير من المواقف القصصية الغربية التي قصها.

ومن المفيد أن نعمد إلى محاورتين: إحداهما من القرآن الكريم، واثانية محاورة مستوحية مستوحاه من القصص القرآني، ونضعهما متحاورتين، لارغبة في الموازنة بينهما، فذلك أبعد ما يكون من القصد ولكن لنعرف طبيعة المحاورة فيهما؛ لأن تشابه الموقفين أو المشهدين القصصين يجعل من اليسير التعرف إلى هذه الطبيعة فيهما، ومن حيث تقديم الشخصيات تقديما مناسباً صحيحاً.

أولاً: قصة سليمان عليه السلام

قال الله تعالى: "قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ".(40) (سورة النمل: 38–40).

ثانياً: قصة مستوحية من قصة سليمان عليه السلام

استوحى هذا المشهد الكاتب "توفيق الحكيم" فصور سليمان عليه السلام، وسط أعوانه من الإنس والجن، فكتب يقول:

سليمان: تجول برأسي فكرة لو حققها أحدكم أعطيته كل ما يتمنى..

الجميع: مرنا نطع أيها الملك.

سليمان: أريد أن أجلس على عرشها.

الجميع: عرشها؟!

سليمان: نعم.. أيكم يأتيني الآن بعرشها قبل أن تأتي؟

الجميع: عرشها؟!

سليمان: نعم.. أيها الجن، أيكم يستطيع ذلك؟

(يتقدم العفريت صخر بين صفوف الجن)

صخر: أن أستطيع...

سليمان: أنت يا صخر؟

صخر: أنا آتيك به أيها الملك.

سليمان: متى؟ متى؟

صخر: قبل أن ينقضي النهار.

سليمان: ولكنها آتيةبعد قليل.

صخر: إن المكان بعيد يا مولاي.. إني سأحمله إليك من مملكة "سبأ"

سليمان: وددت لو أنها جلست على عرشها الآن عند قدومها.

(داهش الجني يشق الطريق مسرعا إلى الصياد هامسًا).

الجني: (هامسًا) أنا آتيه به قبل أن يرتدّ إليه طرفه...

الصياد: (هامسًا) اسكت...

سليمان: ماذا يقول عفريت أيها الصياد؟

الصياد: لا شيء يا مولاي..

الجني: أهذا وقت المزاح أيها الغبي..

سليمان: حقًا ليس هذا وقته.. فيما كان حديثك إذن؟

الجني: عرشها.. أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك!!.

سليمان: أأنت واثق من إمكان ذلك؟!

جني: ضعني موضع الامتحان.

سليمان: وإذا أخفقت.. أتعلم ما الجزاء؟

الجني: حبسي في القمقم، وإعدام الصياد.

الصياد: (كالمخاطب لنفسه) لا حول ولا قوة إلا بالله!..

سليمان: أسمعت أيها الصياد؟

الصياد: سمعت.

سليمان: أنت كما تذكر مسئول عن تبعات فعاله.

الصياد: إذن فلا بد يذهب أبدًا.

الجني: بل دعني أيها الصياد أذهب.

الصياد: أيها الملك.. لا تدعه بربك يضيعني.. هذا الفاجر المغرور!

الجني: لا ترتعد خوفًا أيها الأحمق، إنها فرصة طالما انتظرتها لإظهار عبقريتي.

الصياد: بل هي فرصة لإظهار مصائبك التي ستحل على رأسي!

الجني: (يلكم الصياد) تفاءل، تفاءل.

الصياد: آه... ليتني لم أجد في شبكتي قمقمك النحس، وقنعت بالحمار النافق والزير المسكور!

الجني: أيها الصياد الأحمق.. لا تقف عثرة في سبيل طموحي.

الصياد: (في عجب) متى جاء هذا؟!

سليمان: صدق صاحبك الجني إنها العبقرية.

الصياد: حمدك لك يا رب السموات!

سليمان: إنه حق لعمل عجيب.

(الصياد يفيق من ذهوله ويحس بالفخر).[14]

هذه هي المحاورة التي استوحاها الكاتب من القصة القرآنية، وتوفيق الحكيم واحد من أبرع كتاب الفن في الأدب العربي الحديث، وكان بطبيعته يميل إلى تفضيل الكتابة المسرحية، التي تبدو فيها براعته في إدارة الحوار[15]، ولذا كنا ننتظر هنا حواراً خالياً من العيوب الفنية، لكنا فوجئنا بغير ما توقعنا، ولكن من الإنصاف أن نقول: إن معرفتنا بطبيعة الحوار في القصة القرآنية هي التي دلتْنا على معايب الحوار عند الكاتب نفسه، ولو لم تكن هذه المعاني مستوحاة من القرآن لخفيت هذه العيوب، بل تلاشت كلية.[16]

وأول ما يلاحظ أن ما قدمه الأسلوب القرآني يمكن أن يندرج تحت ما يسمى في عالم الفن بالمشهد الممسرح 17، وهو المشهد الذي يتكون من حوار محض، أي حوار مع توجيهات مسرحية مختصرة، أو حوار مصحوب بتقرير سردي، مركز للغاية وبالنظر إلى المشهد القرآني. لا نجد الأسلوب لجأ إلى التوجيهات المسرحية، سوى مرة واحدة، هي قوله تعالى: (فَلَمَّا رَآَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ...(40) وهذا ما يعرف في التأليف المسرحي باختفاء روح المؤلف. وقد ساعد ذلك على إحياء المشهد القرآني، وتقوية العرض.

وقد لجأ المؤلف الفني إلى التوجيهات المسرحية في المشهد إحدى وعشرين مرة، فكان يضع بين قوسين(...) ما يريد إسداءه من توجيه، هو في المقام الأولموجه إلى الممثل وإلى المخرج الذي يقوم بإخراج مسرحيته إن أريد إخراجها وتمثيلها.

ومن الملحوظ – أيضًا – أن ما حكاه القرآن الكريم، في ثلاثة آيات فقط يحتل ستة أسطر من سطور المصحف حكاه المؤلف في ست صفحات من مسرحيته، وقد يكون هذا التطويل، في المشهد الفني راجعاً إلى رغبة الؤلف في إشباع غريزة الفضول البشري، الذي لا يعجبه أن تمر مثل هذه الأحداث الغريبة عليه مرور الطيف، وكانت هذه الرغبة مزلقا خطيراً أوقع المؤلف في تناقض واضح، هذا التناقض يتصل بتصويره شخصية نبي الله سليمان عليه السلام.

إن غرض المؤلف من المسرحية هو إظهار القدرة الفائقة التي يمتلكها هذا الملك النبي، ويمكن أن نعرف ذلك من خلال هذه الجمل المسرحية التي أوردها المؤلف على لسان "سليمان" في حواره مع بلقيس:

سليمان: إني عجزت عن نفعك ونفع نفسي في يد القدرة الهائلة.. في يد الأعاجيب والعبقرية والمواهب.. في يدي الكنوز، أنا الملك العظيم والنبي الحكيم.. أنا المسيطر على الجنّ والإنس.. والرجال والأموال.. ومع ذلك.. هل أجدى كل هذا شيئًا أمام قلبك.[18]

وفي هذه المحاورة ما يناقص غرض المؤلف في إظهار قدرة سليمان عليه السلام، إذ يبدو سليمان عليه السلام، في بداية المحاورة مترددا في إصدار أمره بإحضار العرش، فهو يدير الفكرة في رأسه أولاً، ثم إنه يغر الحاضرين ويحفزهم على تنفيذ فكرته بأنه سيعطي من يحققها كل ما ي.

وجعل الكاتب جند سليمان عليه السلام، يستغربون رغبته في احضار عرش "بلقيس" قبل أن تأتي حتى إنهم يتساءلون مرتين في دهشة: عرشها؟! ولكنهم لا يدركون مبلغ قوة سليمان.

وجعل الكاتب الإذن للجني "داهش" يصدر من الصياد لا من سليمان عليه السلام نفسه، وكان سليمان عليه السلام، لا سلطان له على "داهش" وإنما أمره بيد الصياد وسليمان يتبع مع الصياد أسلوب الترغيب والترهيب، فهو سيعاقب إذا أخفق الجني، وسيثاب عن فوزه، الذي يشك فيه كثير، ولذا قال سليمان عليه السلام مخاطب الجني: "أأنت واثق من إمكان ذلك؟".

هذه كلها مظاهرضعف رسم شخصية سليمان عليه السلام، تتعارض مع الصورة الكلية التي أراد الكاتب رسمها من خلال المسرحية ولعل الكاتب وقع في هذا التناقض بسبب رغبته الجامحة في نقص أطراف المشهد وإدخاله عناصر أخرى في المحاورة لم يكن لها وجود في المشهد القرأني.

ولننظر الآن في الأسلوب القرآني المعجز، لنرى هذا الإيجاز الذي لا نظير له ولا يمكن لبشر أن يضاهيه مهما أوتي من بلاغة وبيان، أورد الأسلوب القرآني مقالة العفريت من الجن الذي عرض أن ياتي بالعرش قبل أن يقوم سليمان عليه السلام من مقامه، ثم أعقبها مباشرة بمقالة الذي عنه عنده علم من الكتاب، وبين المقالتين فجوة فنية كبرى يستطيع القارئ أن يتمثلها وأن يملأها من خلال تصويراته عن الموقف الذي تحكيه الآيات لعل "بلقيس" كانت على وشك أن تأتي، و سليمان عليه السلام، يريد أن يفاجئها بوجود عرشها في قصره ومن الطبعي أنه لم يقبل مقالة العفريت من الجن لأنه سياتي بعد مجيء بلقيس، وبذلك لا تتحقق المفاجأة، وربما استبطأ سليمان عليه السلام العفريت[19] فرفض ما عرضه عليه ولكن الأسلوب القرآني لم يقل ذلك صراحة لأنه مفهوم من الموقف.

وبعد مقالة الذي عنده علم من الكتاب فجأة أخرى يمكن أن نفهمها – أيضاً –، وأن نعرف ما فيها من أحداث، وأن سليمان عليه السلام، لم يبد اعتراضًا على ما قاله، بل أمره بتنفيذه، ولكنها – على أية حال – فجوة سريعة خاطفة، لم تستغرق من الوقت إلا بمقدار ما استغرقه مجيء العرش على يد الذي عنده علم من الكتاب.

والملحوظ – على محاورة الكاتب – أنه حاول أن يملأ هاتين الفجوتين، فأتى بهذا الحوار الطويل الذي يشبع رغبته ورغبة القراء في معرفة التفاصيل التي ضرب الأسلوب القرآني عنها صفحاً.

والملحوظ أخيرًا أن هناك تزويرًا واضحًا أحدثه الكاتب في الحدث، إذ جعل مجيء العرش على يد العفريت، وهو ما رفضه الأسلوب القرآني لأن القرآن لا يريد أن يجعل للجن قوة ولو كانوا من جن سليمان عليه السلام.

الخاتمة والنتائج

لقد تناول البحث في الصفحات السابقة عرضا سريعا عندراسة تحليليةللمحاورات القصصية في القرآن الكريم، وقد أسفرت هذه المحاولة المتواضعة عن مجموعة من الحقائق أو النتائج، تندرج تحت النقاط التالية:

أ- إن بعض كتاب القصة في ألأدب العربي الحديث قد انعطفوا ناحية القصص القرآني، يستوحونه ويتمثلونه، وينسجون على منواله، فكان أحدهم يأخذ القصة القرآنية ويصوغها في قالب عصري ويغير من أحداثه، واسماء شخوصه، وربما يخرج بها عن المنهج القرأني في الغاية والبناء الفني على السواء.

ب- يختلف أسلوب تقديم الحدث أو الشخصية في القصة القرآنية عنه في القصة الفنّية؛ لأن الغاية الدينية هي المقدمة على ما سواها في قصص القرآن، وبعكس الكتاب الذي يقدمونه دواعي الفن على غيرها من القيم الأخرى.

ت- إن هناك عناصر غيبية تتدخل في الحوار القرآني، فتقطع ما بين المحاورين، وتأخذ الموقف منهم، لتدلي برأيها فيما يتحاورون فيه، وتقيم لأحد الطرفين حجته، أو تقويها، أو تقوّم منطقه، وهذا الأمر حين يحدث في القصة القرآنية لا يكون غريبًا، ولا مستنكرًا، لأن زمام الموق كله بيد القدرة الإلهية المهيمنة، وإذا حدث مثل ذلك في القصص الفني كان ذلك عيبًا في الأسلوب، وخللاً يصيب الحوار.

الهوامش والمراجع

1- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء تراث العربي، بيروت-لبنان، مادة (حور) ج 3، ط 3، 1999م، 1419هـ، ص 384.

2- المصدر نفسه، ج 6، ص 233.

3- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2، 1984م، ص 100.

4- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط 1، 1425هـ، حرف الحاء، ص 205.
5- الصادق قسومة، طرائق تحليل القصّة، دار الجنوب للنشر، تونس، د.ط، ص 212.
6- طه عبد الفتاح، الحوار في القصّة والمسرحية، مكتبة الشباب، د.ت، ص33.
7- الظواهري، محمد كاظم، بدائع الإضمار القصصي في القرآن، الطبعة الأولى، دار الصابوني ودار الهداية، 991م، ص: 75-76.
8- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف وعصام فارس الحرشاني، المجلد الأول، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة – بيروت، 1415هـ 1994م، ج1، ص161-176.
9- الطنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المجلد الأول، مطبعة السعادة، 1397هـ 1977م، ص 115-116.
10- الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة – بيروت، د.ت، ص: 219-220.
11- الظواهري، المرجع السابق، ص: 79-80.
12- المرجع نفسه، ص80.
13- المرجع نفسه، ص 76.
14- محمد مندور،مسرحتوفيق الحكيم، دار النهضة مصر للطباعة، الطبعة الثالثة، د.ت، ص 57-63.
15- يحيى حقي، فجر القصة المصرية مع ست دراسات أخرى عن نفس المرحلة، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص 117- 124.

16- عبد المحسن وطه بدر، تطوير الرواية العربية في مصر، (1870هـ 1938م) الطبعة الثالثة، دار المعارف، 1977م، ص 381-383.
17- كارل فرانز ستانزل، ترجمة: عباس التونسي، مجلة فصول العدد 11. 1993م، من مقال بعنوان: العناصر الجوهرية للمواقع السردية، ص 61.
18- محمد مندور، المرجع السابق، ص: 141.
19- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد الحسن التركي، الطبعة الأولى، المجلد 16، مؤسسة الرسالة – بيروت، 1427هـ 2006م، ص 162.